



## تحولات النسق في الخطاب النقدي المعاصر - من الأدبي إلى الثقافي -

أ. فتحي منصورية

جامعة باتنة 1

### الملخص:

تحاول هذه الدراسة تقديم خطاب ميتاكريتيكي لتحولات الظاهرة النقدية المعاصرة وأبنيتها العميقة التي تنتقل معها من وضع معرفي إلى آخر، ومن براديجم نقدي إلى آخر، كاشفة في الوقت نفسه عن البنية الكامنة وراء هذا التحول وكذا عن المرجعيات المسؤولة بشكل أو بآخر عن هذا الانكسار الحاصل على مستوى بنية المعرفة المعاصرة خاصة في حقل الدراسات النقدية المعاصرة.

### Résumé

Cette étude tente de présenter un discours méta-critique sur les transformations du phénomène critique et de ces structures profondes qui s'enrôlent d'un ordre cognitive à un autre, et aussi d'un paradigme critique à un autre, révélant en même temps la structure sous-jacente de cette transformation, ainsi que les références et fondements responsables en quelque sorte de cette fracture au niveau de la structure de connaissance contemporaine, et surtout en particulier dans le domaine des études critiques.

\*\*\* \*\*

مقدمة :

تشهد النظرية المعرفية عموما والنقدية خصوصا تحولات هامة على مستوى أبنية المفاهيم والتصورات المشكلة لخطاباتها المختلفة والمتباينة ، وهذا التحول ليس إلا استجابة للحالة المعرفية الكبرى التي تنتظم الكون والإنسان والطبيعة والثقافة ، على اعتبار من أن الإنسان وما يتصل به من حالات ثقافية ليس وجودا صلبا وموضوعيا أو معطى جاهز ، إنما هو امتلاك وبناء متدرج عبر التاريخ ، وكل مرحلة من مراحل تكون هذا الكائن تكمل المرحلة التي تسبقها أو تليها ، لذلك ، تأتي نظرية المعرفة بما هي بحث في مبررات الوجود الإنساني لتخضع لهذا النمط من التشكل وتدخل في صيرورة تداولية مستمرة لإنتاج مختلف الخطابات الإنسانية ومعانيها المتصلة بها.

وبما أن البحث يعالج هذا التحول على مستوى الخطاب النقدي المعاصر كحقل إنساني ينتمي إلى حقول المعرفة الإنسانية المتعددة، فإنه يسלט الضوء بشكل أو بآخر على نقاط التمفصل الهامة بين مختلف المدارس والنظريات النقدية المعاصرة بما هي مناطق حساسة يتم على مستواها تحوير المفاهيم وتبيئتها وأقلمتها بالشكل الذي يدفعها للانتظام كل مرة داخل أنموذج معرفي جديد.

مشكلة الدراسة :

يمكن صياغة إشكالية هذا البحث بطرح مجموعة من الأسئلة أهمها :

- ما هو النسق ؟
- كيف يتحدد النسق باعتباره مفهوما نقديا ؟
- ما طبيعة البراديجم النقدي المعاصر الحدائي وما بعد الحدائي ؟
- كيف يمكن توصيف النسق الأدبي والثقافي ؟

### أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى إعادة إنتاج مفهوم للنسق ينسجم مع التحولات الطارئة على مستوى النظرية النقدية المعاصرة ومرجعياتها المتحكمة فيها ، بالإضافة إلى إعادة تعريف الأنموذج النقدي المعاصر تعريفاً يستجيب لهذا التحول دائماً.

### منهج الدراسة :

تستعين هذه الدراسة بحقل نقد النقد، وهو حقل معرفي جديد يجعل من الخطاب النقدي مادة للدراسة والوصف والتحليل.

### أولاً : الخطاب النقدي ما قبل الحداثي : النقد خارج الرقعة النصية :

تطالعنا مختلف المنظومات النقدية الحديثة والمعاصرة خاصة تلك التي تنتمي زمنياً ومعرفياً إلى مرحلة ما قبل الحداثة ، أن النص الأدبي هو انعكاس كلي ومباشر لمختلف الحالات التي يكون عليها صاحب هذا النص ، وإسقاط مباشر لجل المحمولات المعرفية والإنسانية للوضع التاريخي أو الاجتماعي أو النفسي الذي يتحكم في فعل الإبداع لدى المبدع ، لذلك اتجه أغلب نقاد ومثلي هذه المرحلة إلى « التركيز على العلاقة الوثيقة بين الفن والتجربة الحياتية المعاشة خارج مجال الفن الذي يعتبرونه مجرد مرآة مباشرة للحياة »<sup>1</sup> ، لذلك يجعلون حياتهم الشخصية وما يتراكم حولها من متغيرات جل اهتمامهم ، فيغدو بذلك الفن مجرد نقل وانعكاس لتصورهم للحياة ، فهم يقللون من دور التجربة الفنية لصالح المواضيع التي يناقشها الفن ، فالمضمون الفكري الذي يحمله النص الأدبي هو الذي يقع بالدرجة الأولى عندهم وليس طريقة التعبير عن ذلك المضمون ، فيتحول بذلك النص إلى وثيقة تاريخية أو مانفستو اجتماعي أو وصفة علاجية نفسية تقدم بشكل كلي تصور هذا المبدع للعالم وأمراضه على حساب ابستمولوجية النص أو مجمل العناصر الفنية الحاملة لتيمة الإبداع داخله.

ولاشك أن المرجعيات المتحكمة في هذه الرؤية النقدية تمارس فعل التسلط على مناهجها المتباينة ، فالمرجعية المتحكمة في المنهج التاريخي مثلا تنظر إلى النص على أنه وثيقة تاريخية تحمل تصويرا فنيا لأحداث معينة جرت في حقبة زمنية ما ، ويمكن للنص الأدبي كغيره من النصوص الأخرى أن يؤدي الدور المنوط به في المحافظة على المعلومة التاريخية من الزوال والاندثار ، على اعتبار من أن الأدب تجربة معيوشة تتجاوز إطارها الزماني والمكاني المخصوص بها ، والأمر نفسه يقال حول علاقة الأدب بالمجتمع ، ما يفرض هنا حديثا عن نظرية الالتزام في الأدب وكيف تجعل من هذا الأخير تجربة محاكاة تحيط بوقائع المجتمع المتغيرة وتجعل من أحداث المجتمع المحرك الرئيس لقرائح الشعراء والكتاب ، وفي نظر نقاد هذه المرحلة فإن الأدب الحقيقي هو الذي يضع يديه على جراحات المجتمع ، ويجسد صور الألم والمعاناة التي يكابدها أفرادها في سبيل تشكيل صورة مثالية له ، أو صورة حاملة تظل راسخة في وجدان الشعوب والأمم والحضارات.

لقد سيطر هذا النوع من التفكير النقدي ردحا من الزمن على أدبيات الخطاب النقدي الحديث والمعاصر ، ولا يمكن في هذا الإطار إلا الاعتقاد أن هذا النوع من الخطابات جسدت حضور سلطة التاريخ والمجتمع في كتابة النصوص الأدبية وتوجيهها ، وهي سلطة قمعية قللت من الجانب الفني للنصوص لصالح الحضور التاريخي والاجتماعي ، فهما لاشك يقعان خارج حدود الرقعة النصية ، هذا في الحقيقة ما يتنافى مع الطبيعة الاستمولوجية للكون ، فبالرغم من أننا لا ننكر أن للتاريخ دورا مهما في بناء الإنسان إلا أن الحضور الفني لإرادة هذا الإنسان يجب ألا تغيب بفعل الإرادة التاريخية أو قمعية السلطة الاجتماعية ، فالإنسان كائن استمولوجي بالدرجة الأولى ، وهذه الاستمولوجيا لا تحوي بداخلها فقط عناصر الإنوجاد الفكري الصلب لهذا الإنسان فحسب ، بل تحوي أيضا مبررات الوجود الفني الجمالي المتزاح عن التصور العقلي الموضوعي للكون ،

ولا يمكن أن نغفل هذا الجانب أبدا ، خاصة وأن الإنسان ظل يمارس عبر حقب تاريخية متعددة فن التأويل الذي يخرج من دائرة التواصل النفعي للحياة إلى رحاب الصيرورة الفنية والجمالية .

### ثانيا : الخطاب النقدي الحدائي : النص ونظام النسق :

تقدم الحدائنة نفسها كمقولة نظرية وإجرائية من داخل المجال الثقافي الغربي على أنها البراديغم الفكري والمعرفي الجديد الذي أخذ على عاتقه تحرير الإنسان من وهم الوثوقيات المطلقة ، ومن وهم الميتافيزيقا التي ظل هذا الإنسان مرتبطا بها وبمآذجها طيلة حقب طويلة من التاريخ البشري ؛ إن الحدائنة وفق هذا التصور هي « القدرة على الإتيان بكل ما هو مدمر...رحلة إلى عوالم فنية مجعولة لا يمكن أن يكتب لها التوفيق »<sup>2</sup> ، ولهذا ، فهي حركة فكرية ظهرت في إطار منظومة من الأفكار وبتضافر عدد هائل من المقولات الفكرية بدءا من أفكار الفيلسوف الإنجليزي ورجل الدين الإصلاحى توماس موور " Thomas Moore " التي وضعها في كتابه " يوتوبيا " سنة 1534 ، وهذه الأفكار كانت جليا داعية إلى إحياء التراث اليوناني ونبذ فكرة الإقطاعية الكنسية التي كانت تميز الفكر الأوربي قبل هذا العصر ، وفي الحقيقة لقد سبق الإنسانويون المفكر " توماس موور " إلى هذه الأفكار ، إلا أننا نعتقد أن الحدائنة بهذا المفهوم أخذت بالتبلور منذ هذا العهد ، وصولا إلى فكري العقلانية والتجريبية ، وما دعت إليه فلسفة الأنوار ضمن القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر لا يخرج عن هذا الأمر ، إلا أن الثابت في هذا الأمر كله أن الخطاب النقدي طالته هذه الموجة كغيره من أنماط الخطابات الأخرى ، فظهرت اللسانيات السوسيرية التي شكلت الدعامة الأساسية للخطاب النقدي الحدائي فيما بعد.

لقد استفاد الدرس النقدي من فتوحات اللسانيات حيث إنها « تحولت إلى نموذج تمثيلي ، تتطلع العلوم الإنسانية الأخرى إلى الاحتذاء به »<sup>3</sup> ، فكانت

ثنائيات من قبيل : الدال : المدلول ، اللغة : الكلام ، ...دعامات أساسية استفاد منها الخطاب النقدي واندفع بها إلى بناء نموذجه الجديد خاصة في إطار ما لوحظ على عمل الشكلايين الروس الذين كان هدفهم الأول هو البحث عن علم للأدب : أي تحليل النصوص الأدبية وفق المعطى اللغوي لها دون الاستعانة بما يقع خارج هذه النصوص من عوارض تاريخية واجتماعية... إلخ.

لقد أدى هذا الاشتغال عند الشكلايين الروس إلى ظهور مصطلح النسق ، ويعني « نظام ينطوي على استقلال ذاتي ، يشكل كلا موحدًا ، وتقرب كليته بآنية علاقاته التي لا قيمة للأجزاء خارجها »<sup>4</sup> ، ونفهم من خلال هذا التعريف أن النسق يشبه في تكوينه ووظيفته ما طرحه البنيويون عن مفهوم البنية فيما بعد ، ولقد استطاع هذا المفهوم " النسق " أن يشكل مدار اشتغال العديد من المدارس ، بل وأصبح المشترك الوحيد بين تيارات نقدية أبرزها الشكلاية الروسية و مدرسة النقد الجديد و البنيوية خاصة في طورها الفرنسي ، وقد ظل هذا المفهوم يتخارج ضمن براديجم واحد هو براديجم التحليل اللغوي للنصوص ، فلا قيمة للنص إلا بما يحويه من علاقات داخلية لغوية تشكل كيانه اللساني ، ولا اعتبار إطلاقًا لما يقع خارج النص من حوادث اجتماعية أو تاريخية معينة ، ولقد ارتبط هذا النوع من الاشتغال النقدي بما أصبح يسمى بالنقد النصي الذي يحول جل اهتمامه إلى الطرف الثاني من أركان العملية الإبداعية ألا وهو النص.

والنسق الأدبي هو النسق الذي يرتبط بتحليل النصوص الأدبية فقط ، فهو أدبي لأنه يعنى بالمادة الأدبية لهذه النصوص ، ومن أهم خصائصه أنه لغوي بحت يمكن العثور عليه وتحليله داخل النص بل داخل علاقات النص ووحداته الصغرى ، ولا يوجد هذا النسق خارج نصه لأن دورة حياته تبدأ بالنص وتنتهي إليه ، وهذا تماما ما دعت إليه لسانيات سوسير: " دراسة اللغة لذاتها ولأجل ذاتها " .

ولأنه كذلك أي " النسق " فهو شمولي يتحرك في إطار نظام مغلق ، وهذا النظام مركب من أجزاء صغرى لا قيمة لها إلا بولائها للكل ، وإذا كان النسق لا يظهر إلا على هذه الحالة فهو يمتلك ضبط ذاتيته من خلال بنيته الصورية المتحكمة فيه ، ومن خلال تحولات هذه البنية داخل نظام كينونتها.

### ثالثا : الخطاب النقدي ما بعد الحداثي : النص والتأويل الثقافي :

لقد تمادى الطرح البنيوي في اختزال الإنسان إلى بنية ميكانيكية سالبة لا تتحرك إلا داخل نموذج يحدد سلفا قواعد هذا التحرك : لقد تحول الإنسان إلى برنامج قيمي مسلوب الإرادة ، فالبنيوية ترى الغابة ولا ترى الأشجار ، فهي لا تركز على قيمة الفردة الإبداعية إلا من خلال ما ستقدمه للنص في إطاره الكلي ، لذلك ، كان لزاما البحث عن نظم معرفية جديدة تخرج هذا النص من الغيبوبة المعرفية وتدخله في حركية متواصلة لإنتاج المعنى وتأويل العالم ، فالأدب لا يمكن تعريفه إلا في كونه نظام ، وهذا النظام وظيفته الأولى « الإعراب عن المعاني »<sup>5</sup> ، وطريقة الإعراب هذه يجب أن تتضافر فيها كل أطراف العملية الإبداعية من مبدع ونص وملتقي ؛ هذا الأخير أصبح السلطان الجديد الذي أخذت مرحلة ما بعد الحداثة بإنتاجه وإفرازه ضمن ما يسمى بخطاب المابعديات : ما بعد الحداثة ، ما بعد البنيوية ، ما بعد الإنسان ... ، والحديث عن هذه المرحلة هو حديث بالدرجة الأولى عن الحركة الداخلية التي اتجهت إلى من خلالها الحداثة إلى نظامها الداخلي في موجة ارتداد ومساءلة وتقييم وإعادة إنتاج ؛ إن ما بعد الحداثة وفق هذا الطرح هي حداثة بشكل أو بآخر ، والنموذج النقدي لما بعد الحداثة لا ينفصل عن سابقه الحداثي ، فبينهما لحظة تعقل متواصلة ، وما بعد البنيوية هي بنيوية امتلكها الحنين إلى الخارج النصي ولم تصرح به بالرغم من أن فلسفة التفكيك حافظت على ولائها البنيوي خاصة في إطار مقولة " لاشيء خارج النص " ، إلا أن الحديث عن لانهائية المعنى هو فك ارتباط بشكل أو بآخر بمقولة القراءة الواحدية

التي فضلها النقاد البنيويون ، و الثابت في الأمر كله أن مفهوم النسق في هذه المرحلة لم يحافظ على خصوصيته الأدبية كما كان الحال عليه عند البنيويين ، فلقد تحول هذا النسق إلى نسق ثقافي يتخارج ضمن جملة التحولات الطارئة التي حدثت على مستوى النظرية النقدية المعاصرة ، فلقد تحول الاهتمام تدريجيا إلى القارئ ووضعيته المختلفة تجاه النصوص ، وظهر الاهتمام أيضا بالقراءة وجمالياتها ، وظهر ما يسمى بالنقد الثقافي الذي أصبح يعامل النص الأدبي ك « ظاهرة مفتوحة للتحليل من جهات نظر متعددة (...) ، إتباع مداخل كثيرة للنصوص الأدبية لأن الثقافة دينامية ( نشطة ) ومتعددة الأوجه يدخل فيها الاقتصاد والتنظيم الاجتماعي والقيم الأخلاقية والمعنوية والمعتقدات الدينية»<sup>6</sup> ، وهذا التعامل ظهر جليا في أدبيات مرحلة ما بعد الحداثة لأن هذه الأخيرة سلطت الضوء أكثر على الخلفيات الفكرية التي تحرك النصوص والخطابات ، واستعانت وفق هذه الرؤية بعدد المعاول والأدوات أبرزها نظرية فوكو في المعرفة ، وتفكيكية دريدا ، وتأويلية غادامير.

إن نسق ما بعد الحداثة هو نسق ثقافي تجاوز الخصوصية الأدبية واللغوية للنسق البنيوي ، فالنسق الثقافي هو مجموعة البنى المسؤولة عن إنتاج النصوص وتكييفها وفق إملاءات المؤسسة الثقافية التي يحملها النص في حد ذاته ، وهذا التحول الحاصل في طبيعة النسق ما هو إلا استجابة لحالة الانكسار المعرفي التي حدثت على مستوى أبنية المعرفة الغربية ، فتحول الاهتمام مرة أخرى إلى الخارج النصي لكن هذه المرة مع انفتاح كلي وانفجاري حول كل ما يحرك هذا النص من مؤثرات خارجية.

### خاتمة :

يمكن استخلاص مجموعة من النتائج أهمها :

- لا يمكن بأي شكل من الأشكال فهم مختلف الظواهر الإنسانية وتحولاتها إلا بالنظر في مرجعياتها المتحركة فيها ، والتي تبعث فيها مكونا بنيويا يجعلها تتماهى وتنسجم مع أطروحاتها الفلسفية المتباينة.
- تمكنت لسانيات "سوسير" من إحداث ثورة معرفية ومنهجية على مستوى الخطاب النقدي المعاصر ، وأصبح هذا الأخير يتعامل مع أطروحات جديدة لا عهد له بها.
- أنتجت مختلف المدارس النقدية الحداثية المعاصرة مفهوما مشتركا للنسق باعتباره مثار اشتغال أسئلة هذا الخطاب ، وباعتباره كذلك أداة معرفية ومنهجية لتحليل النصوص الأدبية المختلفة.
- استطاع النموذج المعرفي الغربي على مستوى أدبيات الخطاب النقدي المعاصر التخلص من أزمته المتمثلة في عسر المناهج في تحليل النصوص الأدبية ، فظهرت ما بعد الحداثة لتفك الانغلاق الخطير الذي طبع أدبيات الاشتغال البنيوي على النصوص.
- لا يمكن تفسير تحولات النسق الأدبي إلى نسق ثقافي إلى بالرجوع إلى تحليل أركان العملية الإبداعية ، وكيف تحول الاهتمام تدريجيا من المؤلف إلى النص إلى القارئ.

### الهوامش :

- 1- نبيل راغب : موسوعة النظريات الأدبية ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان ، ط1 ، 2003 ، ص ص ، 391:390
- 2- خالدة سعيد : الملامح الفكرية للحداثة ، مجلة فصول ، القاهرة : 4م ، ع 3 ، 1984 . ص 163
- 3- محمد بوعزة : استراتيجية التأويل ( من النصبة إلى التفكيكية ) ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2011 ، ص.13
- 4- إيديث كروزويل : عصر البنيوية ، تر: جابر عصفور ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، ط1، 1992 ، ص.415

5- جان بول سارتر: ما الأدب ؟ تر: محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع  
القاهرة ، د ت ، د ط ، ص 12.

6- فنسنت ليتش: النقد الأدبي الأمريكي ( من الثلاثينات إلى الثمانينات) ، تر: محمد حقي ، المجلس  
الأعلى للثقافة ، القاهرة ، د ط ، 2000 ، ص 104.

مراجع الدراسة :

1- نبيل راغب : موسوعة النظريات الأدبية ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ، ط 1 ،  
2003 .

2- خالدة سعيد : الملامح الفكرية للحدثة ، مجلة فصول ، القاهرة : م 4 ، ع 3 ، 1984 .

3- محمد بوعزة : استراتيجية التأويل ( من النصية إلى التفكيكية ) . منشورات الاختلاف ، الجزائر  
، ط 1 ، 2011 ،

4- إديث كروزويل : عصر البنيوية ، تر: جابر عصفور ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، ط 1 ،  
1992.

5- جان بول سارتر: ما الأدب ؟ تر: محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع  
القاهرة ، د ت ، د ط .

6- فنسنت ليتش: النقد الأدبي الأمريكي ( من الثلاثينات إلى الثمانينات) ، تر: محمد حقي ، المجلس  
الأعلى للثقافة ، القاهرة ، د ط ، 2000.

